للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي[1]

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٩ —

« مضى الأستاذ سيد قطب فيما سماه الموازنة بين الرافعي والعقاد على نهجه وطريقته ؛ وقد آثرت الصمت رعاية لما بيني وبينه من صلات الود ، وأغضيت في سبيل ذلك عن أشياء تتالى من قريب أو من بعيد ...

« ولقد كان حرصي منذ بدأت هذا التاريخ أن أكون مؤرخا وحسب ، مجرداً من هوي الصاحب وميل الصديق ؛ فما كان من حسنات الرافعي أو عيوبه فقد رويته على ما رأيته ، إذ كان حق الأدب على أكثر من حقه . فلما كانت أولى مقالات الأستاذ قطب ، هممت أن أقول شيئا فخشيت ... وخشيت أن يكون لي في الدفاع حماسة توقظ هواي وحبي للرافعي فتغلبني عاطفتي على روح التجرد الذي أحرص عليه حتى أفرغ من هذا التاريخ ... وكفاني الأستاذ شاكر هذه المئونة حين انتدب لتزييف هذا النقد

« ولكن الأستاذ قطب استمر مسرفا في التجني ، ومضى يقول ... ويقول ... ويتهمني في النهاية بأني انحرفت عن منهج المؤرخ ، وكنت عنده شبيها بمن يجلس في المأتم ويرمي الناس بالحجارة ... وعفا الله عنه ... !

« فان كان هذا هو كل عذر الأستاذ قطب من تمزيق أكفان الموتى بأظفاره فقد بلغ وأبلغ ، وسيذكر عذره هذا غداً فيما يؤثر من لطيف الأعذار ، ولكنه لن يبلغ من القوة أن يمحو التاريخ الذي كان ، وإن ساءه وأحفظه أن ينسب هذا التاريخ إلى صاحبه الذي يحاول أن يدفع عنه أو يدفع به ... »

« العريان »

عود على بدء

لم تكن الكتابة عند الرافعي فكرة ومعني وعاطفة فحسب ؛ بل كانت إلى ذلك فناً وأسلوباً وصناعة ؛ والأدب العربي منذ كان إلى أن يُطوَى تاريخه بين دفتين ، هو فكر وبيان ، ما بدّ من اجتماع هاتين المزيتين فيه ليكون أدباً يستحق الخلود . ذلك كان رأي الرافعي ومذهبه ؛ فمن ذلك لم يكن يعتبر المقالة وقد انتظمت في خاطره معنى وفكرة ، مقالةً تستحق أن تكتب وتنشر إلا أن يهيئ لها الثوب الأنيق الذي تظهر به لقرائها ؛ وهذه هي المرحلة الأخيرة

وأول ما يعنيه في ذلك هو بدء الموضوع وخاتمته ؛ لست أعني العبارة التي يبدأ بها والتي يختم ، ولكني أعني طريقة البدء والختام في الموضوع . شأنه في ذلك شأن القاصّ : تجتمع له أسباب القصة بمقدماتها وحوادثها وما آلت إليه ، مرتّبة ترتيب الحادثة بما بدأت وما انتهت ؛ حتى إذا أراد أن يحكيها لمن يسمع أو يكتبها لمن يقرأ ، قدّم وأخّر ، وأظهر وأخفى ، وبدأ القصة بما لم تبدأ ، ليعقد (العقدة) ويُرصد للحل والنفس مستشرفة إليه متطلعة إلى خاتمته ... وكذلك كان الرافعي يفعل في مقالاته

... فإذا عقد العقدة ورتّب موضوعه ترتيب الفصول في الرواية ، آن أوان الأداء فأخذ له أهبته ، فيطوي وريقاته ساعة ، ليرجع إلى كتاب أيّ كتاب من كتب العربية يقرأ منه صفحات كما تتفق ، لإمام من أئمة البيان العربي ، فيعيش وقتاً ما قبل أن يكتب في بيئة عربية فصيحة اللسان . وخير ما يقرأ في هذا الباب ، كتابات الجاحظ وابن المقفع ، أو كتاب الأغاني لأبي الفرج

وسألته في ذلك فقال : « نحن يا بني نعيش في جوّ عامي لا يعرف العربية ، ما يتحدث به الناس وما ينشئ كتاب الصحف في ذلك سواء ، واللسان العربي هنا في هذه الكتب . إنها هي البادية لمن يطلب اللغة في هذا الزمان ، بعد ما فسد لسان الحضر والبادية ... »

على أنه كان لا يُفيد من هذه القراءة اليسيرة قبيل الكتابة — إلا الجوّ البيانيّ فقط . أما حروف اللغة ، وأما أساليب اللغة فلم تكن تعنيه في شيء ؛ فيقرأ عجلانَ غير متلبّث كما يطالع صحيفة يومية ، حتى يفرغ من الفصل الذي بدأ ؛ ثم يطوي الكتاب ويستعد للاملاء

وإذا كان كثير من الكتاب تزعجهم الحركة والضوضاء وتعوقهم عن الاستمرار في الكتابة ، فان الرافعي كان — على ما في أذنيه — يزعجه أن يمر النسيم على صفحة خده ... كان

---

(١) العدد ٢٥٢ من الرسالة

مكتبه إلى جانب باب الشرفة ، وكان لى نضد صغير إلى جانب مكتبه حيث أجلس ليملى علىّ ؛ فكان يلذنى أحياناً والجوحار أن أفتح باب الشرفة لأتروّح ، فلا تكاد تهب نسمة بجانبه حتى يكف . وعرفت عادته هذه فكنت أغلق الشرفة والنافذة معاً ، لأصلى حرّ الغرفة أربع ساعات أو يزيد حتى يفرغ من إملائه . وكان يؤذينى من ذلك أننى كثير التدخين ؛ والحر والمجهود العصبى يزيدان الرغبة فيه ، فلا يمضى ساعتان منذ بدأنا حتى يفسد جو الغرفة ، فأفتح الشرفة برهة لتجديد الهواء فتبادل فيها الحديث ثم أعود فأغلقها ليملى علىّ ... على أنه فى غير وقت الكتابة كان يحب أن يقضى فى الهواء الطلق أكثر وقته ، حتى فى برد الشتاء القارس ؛ فكان إذا فرغ من إملائه خرج إلى الشرفة البحرية يفتح صدره للهواء يصبه عبا كما يُقبل الشارب الحرّ ان على الماء فى يوم قائظ ...

ولم أكن أقاطعه حين يملى علىّ مقاطعةً ما ، إلا حين أشعر بأنه يهم بالانتقال فى الموضوع من فصل إلى فصل ، فأُلقى إليه ما أريد أن أقوله مكتوباً فى ورقة ، لأحاوره فى عبارة أولأستوضحه معنى ... ثم يعود إلى إملائه وأنا أكتب صامتا وهو لا يرفع عينيه إلىّ ... كأنما يتحدث من وراء ستار إلى سامع غير منظور ، أو كأنه فى نجوى خاصة ليس فيها سامع ولا مجيب . ولقد كان يخيّل إلىّ أحياناً وأنا صامت فى مجلسى والقلم يجرى فى يدى على الصحيفة وأذنى مرهفة للسمع — كأنه فى شبه غيبوبة يتحدث إلى نفسه والمجلس خالٍ إلا منه ، فما أنا فيه بشىء إلا إدراكاً غير مجسّد . وأحيانا أخرى كانت تتسع روحه وتنبسط حتى تشملنى ، فما أكتب كلاماً يمليه علىّ ، ولكن تمليه نفسى على نفسى وإن صوته ليرنّ فى أذنى بما سبق إليه خاطرى .

ولم يكن يملى مسترسلا ، ولم يكن يملى وانياً متمهّلا ، ولم يكن فى كل أحواله سواء ؛ فحينا يطاوعه القول ، وحيناً يتأبّى عليه فيسكت وهو يدق على المكتب بحديدة فى يده ويغمغم بصوت لا يبين ؛ فاذا طال عليه الارتاج تناول كتاباً أىّ كتاب على مكتبه ، فيفتحه فيقرأ كلمة أو سطراً أو جملة ؛ ثم يطوى الكتاب ويعود إلى الاملاء . ولقد يراه من يراه فى هذا الوقت فيحسبه يملى مما يقرأ وما به ذلك ، ولكنها كانت لازمة من لوازمه تعوّدها حين يُرتج عليه وتعوّد أن يجد فيها مفتاح القول ...

ولقد أُرتج عليه مرة فطال به الصمت ، فمد يده إلى كتاب على مكتبه وهو يقول ضاحكا : « يا أخى ، لقد تعوّدتها وما أجد لها علة ، وتعوّدت بها أن أجد ما أريد عند أول كلة أقرؤها ولو كان الكتاب معجماً لغويا ... » وكان الكتاب الذى مدّ إليه يده هو (القاموس المحيط) ، قلت : « إن فى بعض الأشياء مثل المفاتيح العصبية ... » قال : « صه ، هذه هى الكلمة التى أريدها : المفاتيح العصبية ... » ثم طوى الكتاب وعاد إلى الاملاء

وكانت له عناية واحتفال بموسيقية القول ، حتى ليقف عند بعض الجمل من إنشائه برهة طويلة يحرك بها لسانه حتى يبلغ بها سمعه الباطن ، ثم لا يجد لها موقعاً من نفسه فيردّها وما بها من عيب ، ليبدل بها جملة تكون أكثر رنيناً وموسيقى . وكان له ذوق فنى خاص فى اختيار كلماته يحسه القارئ فى جملة ما يقرأ من منشآته ، ولكنى كنت أجد الاحساس به فى نفسى عند كل كلمة وهو يملى علىّ . هذا الذوق الفني الذي اختص به ، هو الذي هيّأه إلى أن يفهم القرآن ويعرف سر إعجازه فى كل آية وكل كلمة من آية وكل حرف من كلمة . وحسب القارئ أن يعود إلى تفسير الرافعى لقوله تعالى : « ولقد راودته التى هو فى بيتها عن نفسه ... »[1] ليرى نموذجاً من هذا الذوق الفنى العجيب فى فهم اللفظ ودلالة المعنى ، يقابله وجه آخر من هذا الذوق فى اختيار ألفاظه عند الانشاء . وكان إلمامه بمتن اللغة ، وإحاطته بأساليب العربية ، ومعرفته بالفروق اللغوية فى مترادف الكلام — معينة له عوناً كبيراً على البلوغ بعبارته هذا المبلغ من البيان الرفيع . احتاج مرة أن يعبر عن معنى فى أسلوب من أسلوبه ، فأرتج عليه ، فأخذ يغمغم برهة وأنا منصت إليه ؛ فاذا هو يقرأ لنفسه من ذاكرته باباً من كتاب المخصّص لابن سيده ثم دعا بالكتاب فأخرجته إليه ؛ فما هو إلا أن فتحه حتى وقع على مراده ، فطوى الكتاب وعاد إلى إملائه ... وهو على صحة عبارته وسلامتها قلما كان يلجأ إلى معجم من المعاجم ليبحث عن كلمة أو معنى كلمة . ومع حرصه على أن يكون قوىّ العبارة عربىّ الديباجة قلما كان يستعمل عبارة من عبارات الأولين . وكم أجدّ على العربية من أساليبه ومعانيه . وكان له فى إنشاء (الكناية) إحساس دقيق . وأحسب لو أن واحداً من أهل البيان أراد أن يتتبع ما أجدّ الرافعى على العربية من أساليب القول ، لأخرج قاموساً من التعبير الجميل يعجز عن أن يجد مثله لكاتب من كتاب العربية الأولين ؛ إذ كان مذهب الرافعى فى الكتابة

(١) وحى القلم ج ١ ص ١٠٩ (صور الحب)

هو أن يعطى العربية أكبر قسط من المانى ويضيف ثروة جديدة إلى اللغة ، وقد بلغ ما أراد . إننى لم أعرف كاتباً غير الرافعى يجهد جهده فى الكتابة أو يحمل من همها ما يحمل ؛ وما أعرفه حاول مرة واحدة أن يسخر من قرائه أو يشموذ عليهم ليملأ فراغاً من صحيفته يريد أن يملأ . على أنه أحياناً كانت تدعوه دواع إلى كتابة لم يتهيأ لموضوعها أو يفرغ لها باله ، فيمليها على عجل بلا إعداد ولا توليد ، ولكنك مع ذلك تجد عليها طابع الرافعى وشخصيته ، فتعرف كاتبها وإن لم يذيلها باسمه . والعجيب أن هذا النوع من المقالات التى كان الرافعى يكتبها بلا إعداد ولا احتفال كان أحب إلى كثير من القراء ، وكان الرافعى يرتفع به عن منزلته درجات عند طائفة من القراء ...

والشاى أو القهوة هما كل المنبهات العصبية التى يطلبها الرافعى عند ما يكتب ، وفنجانة أو اثنتان هما حسبه فى هذا المجلس الطويل. وعلى أنه فى أخريات أيامه قد ولع بتدخين الكركرة (الشيشة) فانه لم يكن يدخن إلا دخينة (سيجارة) أو دخينتين فى مجلس الكتابة ؛ فكان يشترى العلبة فتظل فى درج مكتبه شهراً إذا لم يزره فى مكتبه زائر ...

... فإذا فرغ الرافعى من إملاء مقاله ، تناوله منى فطواه قبل أن يقرأه ، ثم يودعه درج مكتبه إلى الصباح ويخرج إلى الشرفة يشم نسيم المساء ... ثم يأوى إلى فراشه ...

وأول عمله فى الصباح بعد صلاة الفجر أن يعود إلى المقال الذى أملاه علىّ فى الليل فيقرأه ويصححه ... ثم يسعى به ساعيه إلى حيث ينشر ... ويفرغ يوماً لنفسه قبل أن يهيئ فكره لموضوع جديد ...

مقالة ... هى عمل الفكر ، وكد الذهن ، وجهد الأعصاب وحديث النفس فى أسبوع كامل ؛ ولكنها مقالة ... ومع ذلك فقد أنشأ كتاب « رسائل الأحزان » فى بضعة وعشرين يوماً ، وكتب «حديث القمر» فى أربعين ، وكتب «السحاب الأحمر» فى شهرين ...

وقال قائل من خصومه : « إنه يقاسى فى هذه (الكتابة) ما تقاسى الأم من آلام الوضع ... ! »

وقال الرافعىُّ يجيبه : « أتحداك أن تأتى بمثلها أو بفصل من مثلها ... وعلىّ نفقات القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامة الله ! »

(شبرا) محمد سعيد العريان

لجنة الجامعيين لنشر العلم

صدرت الطبعة الثانية المنقحة من كتاب

الشرق الاسلامى فى العصر الحديث

تأليف حسين مؤنس

ماجستير فى التاريخ بمرتبة الشرف

يتناول تاريخ مصر والشام وتركيا والعراق وفارس وبلاد العرب والمغرب من أواخر الحروب الصليبية إلى حوالى منتصف القرن التاسع عشر

وصدره بمقدمة وافية عن هذا العصر المؤرخ الجليل الأستاذ محمد شفيق غربال بك أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة المصرية ووكيل كلية الآداب بها

والكتاب ثلاثة أقسام أولها: يوجز تاريخ الأمم الاسلامية من أواخر الحروب الصليبية إلى أوائل القرن السابع عشر ويدرس النهضة الفارسية الصفوية وقيام دولة الترك العثمانيين ودول المماليك فى مصر ودويلات المغرب ، ثم يدرس النهضة الأوربية والعلاقات بين أوربا والشرق حتى أواخر القرن الثامن عشر

والقسم الثانى يتناول الحملة الفرنسية على مصر وما أعقب ذلك من العلاقات السياسية والحضارية بين الشرق الاسلامى والدول الأوربية حتى أوائل القرن التاسع عشر

والقسم الثالث إيجاز دقيق لتاريخ كل من الأمم الاسلامية إلى منتصف القرن التاسع عشر ، فمن الثورة الوهابية إلى فتح السودان إلى ثورات البلقان إلى الصراع بين مصر وتركيا إلى أحداث الشام إلى حرب القرم إلى فتح الفرنسيين للمغرب إلى أحداث العراق وما تم به من الأحداث إلى ولاية مدحت باشا

وفى نهاية الكتاب فصل قائم بالمراجع يقع فى ست وأربعين صفحة كاملة أورد فيه المؤلف ثبتا وافياً جداً بالمؤلفات التى تحدثت عن هذه البلاد فى الفترة التى تناول الكتاب دراستها وفى ختامه كشاف أبجدي بأسماء الأعلام

ومع الكتاب خريطة كبيرة للبلاد الاسلامية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . والكتاب يقع فى ٤٦٨ من القطع الكبير .

ويطلب من

المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر